المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع والستين

١ يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ — الموافق ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٣

الوطن وما يجب علينا لهُ

بيني وبين عمدة هذه الجامعة وبعض اساتذتها شيءٌ من المشادّة لا بأس ان افضي اليكم به . فانهم منذ بضعة اعوام يطلبون اليَّ ان اكون خطيب الحفلة السنوية للجامعة ظنًّا منهم ان في التبة شيخًا . وفي كل عام اعتذر وارفُّ طلبهم بالتي هي احسن لا لاني لا أريد ان اقوم بادداء هذه الخدمة للجامعة التي لها الفضل الاكبر عليَّ بل عالمًا بعجزي عن الوقوف في مثل هذا الموقف من الجهة الواحدة ورحمة بالسامعين من الجهة الاخرى

ولمَّا اشتدّ الالحاح رأيت ان لا سبيل الى ردّهم عن خطإهم الاَّ ان اقبل الدعوة في هذا العام وان اسأت الى نفسي والى السامعين. فيقبولي هذا لا يعودون الى مثلها مع من يعتذر عما لا يستطيعهُ

تعطي التجارب حكمة لمجرّب ... حتى تربّي فوق تربية الأب

وعليهِ فاذا تولاَّكم السأم فلوموهم ولا تلوموني . وكل ما استطيعهُ الآن للتخفيف عنكم هو ان اجعل كلامي غاية في الاختصار بالالفاظ والمعاني وان اتعجّل في الفائدة والعودة الى مكاني

ولقد حرت في اختيار موضوع يناسب المقام فلا تملّهُ الاسماع كثيراً ولا يقتضي تعمقًا في المعرفة او جهداً في البحث والتنقيب فاستقر ورايهُ قصوري امام ابناء هذه الجامعة وغيرهم من الفضلاء والادباء الحاضرين الآن فاستعرضت المواضيع العمومية التي

(١) جانب من الخطبة التي القاها صاحب السعادة البر سعيد شقير باشا في الاحتفال السنوي بجامعة بيروت الاميركية في ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٥

تهم ابناء وطني في نهضتهم هذه اكثر من سواها وتردّدت فيها بين الكلام على التعليم والتربية المدرسية والتسامح الديني والاعتماد على النفس والزراعة وكيف نخدمها والتجارة وكيف نوسّع نطاقها والصناعة وكيف نرقيها وموارد الثروة وكيف ننميها وغير هذه ممّا تحتاج اليهِ البلاد . واخيراً خطر على بالي ان اجمع الكل في واحد واجعل كلامي في الوطن وما يجب علينا لهُ ولاسيما نحن المتعلمين . وهو موضوع مجالُ البحث فيهِ متراحب الاطراف والحديث عنهُ ذو شجون فلا تملّهُ الآذان مهما كررتهُ الالسنة وتعاقبت عليهِ الازمان

نشأ الواحد منا وشبّ ايها السادة وهو يسمع الاقوال المأثورة عن الوطن وحبهِ ولا تزال تسمعها اثراً ونظماً في معاهد العلم وعلى منابر الخطابة . في الاندية العمومية وفي المجالس الخصوصية ، إبّان السلم واوقات الحرب . فمن لم يسمع منا ما جاء في الحديث ان «حب الوطن من الايمان» او من لم يحفظ ان «حبّ الوطن فتّال» او «محبة الاوطان حتم على الانسان» او

«وتستحسن الارض التي لا هوًى بها ولا ساؤها عذب ولكنها وطن»

او غير ذلك من جوامع الكلم وطيب الشعر مما يعدّ منهُ ولا يعدّد

تُرضع الامهات هذا الحب لاطفالهن مع اللبن ويغرسهُ المعلّمون في صدور الناشئة في المدارس و ينادي بهِ او باب الافكار وقادة الرأي العام في كل مكان وزمان وتجعلهُ الحكومات على اختلاف انواعها والامم على تباين اجناسها سائدة كانت أم مسودة من اسمى الاخلاق التي يمكن ان يتصف بها الفرد فهي تكافئ الذين يخدمون وطنهم بتكريمهم وإفاضة القاب الشرف عليهم واقامة التماثيل لهم تخليداً لذكرهم سواء خدموهُ باقلامهم وافكارهم والسلم منشور اللواء ام بسيوفهم ومهجهم والحرب مشتعلة نارها في الفضاء

فما هو هذا الوطن يا ترى الذي ينتفي الكل بحبهِ وماذا يُفهم من هذه الكلمة التي استهوت الجموع وملكت القلوب ؟

ان اسهل الطرق التي تُقرّب بها فهم معنى الوطن الى اذهاننا هي ان نطبّقهُ علينا ونتساءل ما هو الوطن بالنسبة الينا او بعبارة اخرى ان نسأل انفسنا ما هو وطننا مستوضحين بيان حقيقة الحال دون ان نتسلّط علينا الاوهام او نغترّ بالخيال

أهو المكان الذي ولدنا ورأينا فيهِ. فقد وُلد الواحد منا وربي في قرية من قرى لبنان او مدينة من مدن الشام او بلد من بلاد فلسطين . ولكنهُ اذا ذكر الوطن في غربتهِ فلا

يقصد به تلك القرية او تلك المدينة او ذلك البلد . اذن ليس مكان ولادتنا الوطن المشار اليهِ والذي يعنيهِ الفرنسويون بكلمة (Patrie) والانكليز والاميركان بكلمة (Country)

ام هو القضاء او المتصرفية او الولاية حسب التسمية القديمة — او المحافظة — حسب التسمية الجديدة — التابعة لها تلك القرية او المدينة او ذلك البلد اداريًّا في نظام حكمها

لكن الدمشقي او الحلبي او العلوي او اللبناني او الفلسطيني اذا ذكر الوطن في دار غربتهِ فلا يقصد بهِ ذلك القضاء ولا تلك المتصرفية او الولاية او المحافظة وان كان للقضاء او المتصرفية او الولاية او المحافظة تأثير شديد في عواطفهِ وامالهِ

لم يبقَ امامنا للنظر فيما هو وطننا سوى البقعة التي اطلق عليها اسم سورية منذ اكثر من الفي سنة وهي البقعة التي تشتمل على مناطق دمشق وحلب واللاذقية وجبل الدروز ولبنان وفلسطين وبعبارة اخرى البقعة التي تحدّها من الشمال جبال طوروس ومن الجنوب الديار المصرية ومن الشرق البادية والفرات ومن الغرب البحر المتوسط

فانكم تعلمون انهُ ايناكان الواحد من ابناء هذه المناطق في دار غربتهِ يطلق عليهِ ابناء تلك الدار لقب السوري ولا يعارض هو في هذا اللقب بل يرتاح اليهِ سواء أكان مولده في منطقة دمشق ومذهبهُ السياسي الوحدة السورية او في منطقة لبنان ومذهبه السياسي الوحدة اللبنانية او في فلسطين ومذهبه السياسي الوحدة العربية

فني امركا ومصر مئات الالوف من ابناء هذه المناطق لا يُعرفون بغير اسم السوريين وكلهم يعدّون سورية وطنهم على رغم تباين عناصرهم واديانهم واختلاف اوساطهم وتنوّع منابت اصلهم

فهل سورية وطننا جميعًا بالمعنى الذي يقصدهُ الاميركي مثلاً حينما يقول ان امركا وطنه او الفرنسوي حينما ينتسب الى فرنسا او الانكليزي حينما يذكر بريطانيا وهل نشعر شعورهم ونعتز عزّهم اذا ذكرنا سورية

اذا انتسب الاميركي او الفرنسوي او الانكليزي الى وطنهِ وباهى بهِ فهو لا يقصد بهِ حدوده الجغرافية وماءه وهواءهُ ورياضهُ وغياضهُ وجبالهُ وسهولهُ وجداولهُ وانهارهُ . بل ما هو اسمى من ذلك وهو الامة التي تسكن ذلك الموقع الجغرافي ، والتي هو منها بمنزلة العضو من الجسم الحيّ ، تتألم اذا تألم وتذل اذا ذلّ وتعزّ اذا عزّ وتنهض على بكرة

أيها ذابّة عنهُ اذا مُسّت حقوقهُ مدافعة عن حياتهِ اذا تعرضت لخطر بكل ما اوتيت من حول وطول حتى لقد تعبتْ جيوشها وتجرد اساطيلها وتبذل مهجها في سبيل حمايتهِ

انهُ يقصد بالوطن عدا الموقع الجغرافي الامة التي تربطهُ بها المصلحة العامة لا الرابطة الدينية ولا العنصرية ولا الجنسية ولا اللغوية وان يكن لهذه الروابط شأن كبير في توثيق رابطة المصلحة العامة . واذا باهى بامتهِ فهو يباهي بعظمائها وعلمائها وادبائها وصناعيها وثروتها ودرجة رقيها في سلم العمران والمدنية . يباهي بتمدنها وما فعلتهُ للترقية البشرية وتخفيف ويلات الانسانية . يباهي بنوابغ رجالها الذين يشار اليهم بالبنان . يباهي بمدارسها وجامعاتها ومستشفياتها وسائر معاهدها العلمية والتهذيبية والخيرية وانظمتها الدستورية . يباهي ببيانيها الشامخة وصروحها الباذخة ومتاحفها المتعددة الاغراض وما فيها من التحف النادرة المثال . يباهي بتفوّق ابنائها في صناعات النقش والحفر والتصوير والموسيقى وسائر الفنون الجميلة التي تجعل البلاد بأسرها معرضاً عاماً يبهج النواظر ويسحر الالباب . ومن يرى باريس ولندن ونيويورك وغيرها من العواصم المشهورة وما فيها من الآثار العظيمة ولا تدهشهُ آيات الفن التي فيها ويطأطئ الرأس هيبة واحتراماً امام تلك العظمة وما وصلت اليهِ تلك الامم . اذن الانتساب الى الوطن والاعتزاز بهِ لا يقصد بهما الانتساب الى بقعة مخصوصة من الارض لحسن موقعها وصفاء أديم جوّها . بل الانتساب الى الامة التي في تلك البقعة والتخر باعمالها ودرجة رقيها والمنزلة التي لها في عيون سائر الامم مما يرفع منزلة ابنائها ويعزّهم

فهل الانتساب الى سورية او الى الامة السورية مما يرفع منزلة السوري ويُعزّهُ ؟ كلاّ ايها السادة بل اذا سألتم الكثيرين من السوريين ولاسيما المهاجرين منهم اجابوكم ان انتسابهم الى سورية وقف في سبيل نجاحهم في كثير من البلدان وفي عدة من الاحوال اذا لم يكن قد اضرّ بهم

فهم اذا حنّ الواحد منهم الى وطنهِ فحنينهُ وقتي الى جمالهِ الطبيعي وصفاء سمائه وطيب هوائه ومائه . والى امهِ وابيهِ واخته واخيه لا الى وطن جعلتهُ امتهُ معقلاً يعتزّ بالاقامة فيهِ ولا الى امة بالغة من الرقي مبلغاً يدعو الى الفخر تربطهُ بها رابطة متينة العرى تشدّهُ اليها وتشدها اليهِ فلا يطمئن الاّ بالانتساب اليها وليس لهُ حياة ادبية او سياسية الاّ بهذا الانتساب

ولعلكم تقولون اذن تريد ان تفهمنا انهُ ليس لنا وطن وليس لنا امة . نعم ايها السادة

هذا الذي اريدهُ وهو قول مرٌّ اليم فاذا شاء احدكم ان لا يقرّه انفةً واستكباراً او ظنّ اني مبالغ في كلامي فذلك لا ينفي انهُ حقيقة تلمسها باليد ونرى اثرها فينا وفي حياتنا واعمالنا كل يوم هنا وفي الديار التي هاجرنا اليها . ولكننا ايها السادة نريد ان يكون لنا وطن ونريد ان تكون لنا امة . فهل من سبيل الى ذلك . نعم وهل تعرفون من يوصلنا الى هذه الغاية المنشودة ويحقق امانينا . هو انتم يا ابناء هذه الجامعة السوريين . هو انتم ايها المتعلمون من ابناء هذه البلاد سواء كنتم قد تلقيتم علومكم في هذا المعهد ام في غيره من المعاهد التي شادها الاميركيون والفرنسويون والانكليز والوطنيون في هذه البلاد وان كانت الاخيرة قليلة جدًّا

فما هو الواجب علينا نحن المتعلمين حيال هذا الموقف وكيف نصل الى الغاية المنشودة

هذا السؤال يدعو الى وصف اعراض الداء المزمن الذي تشكو منهُ البلاد للتمكن من النظر في كيفية علاجه

فسكان سورية كما لا يخفى عليكم ليسوا عنصراً واحداً وهي لم تسمّ بهذا الاسم نسبة الى عنصر قوي من عناصرها تغلّب على العناصر الاخرى بل أطلق عليها هذا الاسم اليونان . فقد قيل انهم حينما عرفوها كانت صور الفينيقية في عنفوان مجدها فسمّوا البلاد الواقعة بين اسيا الصغرى ومصر باسمها . وسمّيت صور صوراً لانها مبنية على صخر وهو اسمهُ بالارامية وقد خلط المؤرخون بين الصوريين (بالصاد) والسوريين (بالسين) والاشوريين الذين تغلبوا على شمال البلاد فسمّوا الاشوريين سوريين ايضاً . والسوريون الاصليون اخلاط من الاراميين والكنعانيين والحثيين والعبرانيين والفلسطينيين والفينيقيين وقد تغلبت على سورية دول متعددة فاقتحمها البابليون ثم المصريون ثم الاشوريون ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك فكانها الآن مزيج من تلك الامم وسواها ممن غزا البلاد

اما من حيث الاديان ففيها من النحل والملل ما لا مثيل لهُ في صقع آخر من اصقاع الدنيا . ولا خلاف في ان لهذه الاديان ومذاهبها وطوائفها شأناً كبيراً في سياسة البلاد وعدم الاتفاق على ما يعلي شأنها . ففيها الصابئة واليزيدية والنصيرية . وترى اليهود والنصارى والمسلمين منقسمين الى طوائف كل منها تدعي الصواب وصحة العقيدة وتنسب الى غيرها الضلال . فمن طوائف اليهود : القراؤون والاشكنازيون . ومن طوائف النصارى : الباطرة والسريان والكلدان والارمن والموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين

والبروتستانت وغيرهم . ومن طوائف الاسلام : الاسماعيلية والشيعة والنصيرية والدروز

وكل فريق من هؤلاء متشبث برأيهِ ومذهبهِ يشاقّ غيرهُ فينفر منهُ و يتجنب مخالطتهُ ولو وقف الامر عند هذا الحدّ لهان ولكن طالما اشتد بينهم النزاع والخصام وثارت ثائرة التعصّب فآل الامر الى امتشاق الحسام وسفك الدماء . ناسين انهم اخوان في الوطنية وجيران في السكن وشركاء في المصلحة العامة . وطالما صحوا بهذه المصلحة على مذابح الاختلاف في المذاهب والعقائد التي لا شأن لها في جوهر الاديان وكلها توصي بالمحبة بين الناس وان يعامل الانسان غيرهُ كما يريد غيرهُ ان يعاملهُ

وفوق ذلك كلهِ فان حالة البلاد الاقتصادية لما تنقبض لهُ النفوس فان الجانب الاكبر من زراعتها مخطٌ سقيم على رغم جودة ارضها وطيب هوائها ووفرة مائها حتى انها ضاقت بسكانها القليلين فاخذوا يهاجرون منها بعد ان بلغوا في زمن من الازمان الغابرة نحو خمسة عشر مليوناً وكانت الارض تفيض لبناً وعسلاً وتتدفق منها مياه الثروة

والصناعة فيها تكاد تكون اسماً لغير مسمّى بعد ان كانت قد بلغت في ايام الفينيقيين مبلغاً عظيماً جداً ولاسيما في انشاء السفن وتطريز الاقمشة والبناء والنقش وعمل الاصباغ واستخراج المعادن وصياغة الذهب والفضة وتلوين الزجاج . وتجارتها بائرة بعد ان كانت بضائعها تملأ الاسواق في جزائر بحر الروم وسواحله وفي اسيا واوربا وافريقيا حتى بلغت الهند و بلاد الانكليز وجزائر كناري على رغم قلة وسائط النقل وندرة وسائل المخابرات

فبلاد عناصرها مختلفة هذا الاختلاف وزراعتها وصناعتها وتجارتها على ما وصفنا والاميّة فاشية في كل اصقاعها الى الدرجة القصوى اذا استثنينا لبنان وبعض المدن — كيف تجمعها جامعة وطنية وكيف ترتقي في سلّم المدنية او كيف يكون لها شأن . ولقد دلّ تاريخها القديم والحديث انهُ لم يقم فيها في عصر من عصور التاريخ مملكة واحدة عامة مستقلة جمعت كلمة ابنائها وضمتهم تحت لواء واحد

هذا هو الداء الذي طال عليهِ الزمن وهو اذا لم نجد لهُ علاجاً شافياً لا يرجى ان نصير امة او ان يكون لنا وطن

قلت اذا لم نجد لهُ علاجاً . ولكن العلاج معروف مشهور تنادي بهِ ألسنة المفكرين في هذه البلاد وفي المهاجر منذ ازمان وهو تشجيع التعليم وتوحيدهُ ، ونشر التهذيب الصحيح المرقّي للاخلاق . واعني بتوحيد التعليم تربية النشء في المدارس على حبّ الله والوطن وترك الحرية التامة لهم في العبادة والعقيدة كما تفعل هذه الجامعة

هذا هو الدواء الذي يؤلف بين عناصر البلاد المختلفة المتباينة الاغراض فينسون اصولهم او يصح امرها ثانوياً في نظرهم. هذا هو الدواء الذي يبث في النشء اولاً وفي البلاد ثانياً روح التسامح فلا تبقى الطائفية او العنصرية سداً منيعاً في سبيل تكوين الجامعة الوطنية . هذا هو الدواء الذي يحيي الزراعة والصناعة والتجارة . هذا هو الدواء الذي يجعل البلاد من اقصاها الى اقصاها وطناً حقيقياً لنا . ولكن معرفة الدواء لا تجدينا نفعاً اذا كنا لا نتعاطاهُ اولم يكن عندنا من الاطباء من يشير علينا كيف نتعاطاهُ . وهل نعلون من هم الاطباء . هم نحن المتعلمين من ابناء سورية

ان طبيب الاجساد ينتظر العليل ريثما يدعوهُ فيشخص الداء ويصف لهُ الدواء ويتركهُ وشأنهُ . ولكن الطبيب في حالتنا الاجتماعية يجب ان يبحث عن العليل . داؤنا ليس داءً افرادياً بل هو وباء عام لا يبقي ولا يذر ومن الواجب على المتعلمين اطباء الوطنية ان يندفعوا لمعالجته وان يضحوا بانفسهم في سبيل استئصاله كما يفعل اطباء الاجساد اذا انتابت البلاد الاوبئة . ومن العار علينا نحن المتعلمين ان نقف مكتوفي الايدي تاركين امر التعليم والتهذيب في البلاد للحكومة معزين نفوسنا بانها هي التي عليها ان تعنى به وان في البلاد اجانب من الاتراك والفرنسويين والانكليز وغيرهم يهتمون بالتعليم

ان مدارسنا الوطنية ليست شيئاً يذكر بالنسبة الى مدارسهم . وما فعلناهُ في سبيل تعليم ابنائنا دون الحقير بالنسبة الى ما فعلوهُ . فنحن مدينون لهؤلاء الاجانب ديناً ادبياً ابدياً من هذا القبيل

ولكن ما تفعلهُ الحكومة وما يفعلهُ الاجانب لا يكفي لانهاض البلاد النهضة المطلوبة ولا ينهضها حقيقة الا مدارسنا الوطنية والاكثار منها تدريجياً من اولية وثانوية وعالية ويجب ان لا تقتصر على تعليم العلوم الابتدائية والعالية بل ان تتناول تعليم الزراعة والصناعة والتجارة . وعلينا نحن المتعلمين البحث عن السبيل المؤدي الى ذلك . فما هو هذا السبيل؟

انشئت منذ سنوات قليلة جمعيتان من السوريين قوام الاولى المتعلمون في المدارس العالية على اختلاف اصحابها وقوام الاخرى المتخرجون في هذه الجامعة

غاية الاولى درس مجرى الاعمال الادارية في دوائر الحكومة وفحص بعض الاحكام القضائية وغيرها بغية توجيه انظار اولي الامر الى مواضع الخلل لاصلاحها وقد افادت بذلك فائدة تُذكر

وغاية الثانية جمع المال من ابناء هذه الجامعة لتعليم التلاميذ الشرقيين من ابنائنا

الفقراء في هذه الجامعة من اي الطوائف كانوا وتعزيز مكتبتها الشرقية

هاتان الجمعيتان لا تزالان تعملان بكل ما اوتي اعضاؤهما من الهمة والنشاط على رغم الصعوبات التي تكتنف اعمالها في بدء حياتهما . هما حجران اساسيان في تشييد صرح الوطنية المنشود وتأليف جمعيات مثلها تخصص كل منها لشأن من شؤون البلاد هو السبيل المؤدي الى اتمام هذا الصرح

نحتاج الى جمعية من المتعلمين تجعل همها الاكثار من المدارس وكيفية الوصول الى هذا الغرض . فتنشئ لجنة منها لنشر الدعوة الى ذلك بين الشعب مبينة مزايا التعليم وفوائد تعميمه وتربية الناشئة في المدارس على قواعد الالفة والاتحاد بالخطابة والكتابة والوعظ والارشاد

وتنشىء لجنة اخرى مرماها تعليم من لا يستطيع الذهاب الى المدارس في منزله دون الانقطاع عن عمله بتخصيص ساعة من وقته كل يوم للدرس والمطالعة سيراً على برنامج تضعهُ اللجنة لهذا الغرض وترسلهُ الى كل من لا قبل لهُ الاَّ بهذا الشكل من التعلم . مثل هذا المشروع صادف نجاحاً باهراً في اميركا واسمهُ المشروع الشتوي نسبة الى بلدة شتوى التي استهُ وتوجد مشاريع من نوعهِ في انكلترا وفرنسا وغيرهما

وتؤلف لجنة اخرى لاستدناء اكف الاغنياء مبينة لهم ان خير طريقة لاستثمار اموالهم هي وضعها في رؤوس ابنائهم

ونحتاج الى جمعية اخرى لتنشيط الزراعة واصلاحها فقد قرأ المتعلمون منا وخبروا الى اي درجة من التقدم وصل فن الزراعة في اوربا واميركا والاوج الذي بلغهُ من الاتقان . فقد جعلوا من الاراضي المجدبة والبقاع السبخة تربة تدرّ ذهباً وفضة وتفننوا في آلات الحرث والزرع والحصد وقلب الاتربة بالبخار وتمهيدها حتى اصبحت الاراضي تغلّ اضعاف اضعاف ما كانت تغل بدونها بنفقة قليلة وتعب لا يذكر وعليهِ فيكون من شأن هذه الجمعية تأليف اللجان من الاخصائيين من اعضائها او غيرهم لدرس احدث طرق الزراعة والآلات الزراعية وافضل انواع الاسمدة وارشاد الزُرّاع واصحاب الاراضي الى استعمالها بالترغيب والتشويق والاقناع ونشر ذلك مرّة بعد مرّة من على صفحات الجرائد وفي القرى بواسطة الاعلانات والمشايخ والمختارين واعطاء الجوائز للفائزين

(للكلام صلة)